تقسيم الحيوان والطير عند الجاحظ

يرى الجاحظ فى كتابه الشهير «الحيوان» أن الحيوان على أربعة أقسام: شىء يمشى، وشىء يطير، وشىء يسبح، وشىء يزحف. إلا أن كل طائر يمشى، والنوع الذى يمشى على أربعة أقسام: ناس وبهائم وسباع وحشرات، والطير منه الجوارح ومنه النباتى. ويعرف السباع من الطير بأنها ما أكل اللحم خالصًا، والنباتى منه ما أكلت الحب خالصًا، والمشترك كالعصفور فإنه ليس بذى مخلب معقف ولا منسر، وهو يلقط الحب، وهو مع ذلك يصيد النحل إذا طار، ويصيد الجراد ويأكل اللحم، ولا يزق فراخه كما تزق الحمام، بل يلقمها كما تلقم السباع من الطير فراخها.

عرض وتلخيص

أ.د مصطفى فـــايز

صفات الكلب الذكى (للجاحظ)

أن يكون صغير الرأس، طويل العنق غليظهما، وأن يكون أغضف مفرط الغضف (أى منكسر أعلى أذنيه إلى مقدمه). ويكون أزرق العينين، طويل المقلتين، ناتئ الحدقة، طويل الخطم، واسع الشدقين، ناتئ الجبهة عريضها، ويكون قصير اليدين طويل الرجلين؛ لأنه إذا كان كذلك كان أسرع فى الصعود بمنزلة الأرنب.

تعريف الحمام عند الجاحظ

وحين يتطرق إلى الحديث عن الحمام فإنه يقول عنه: إنه كل طائر يعرف بالزواج، ويحسن الصوت والهديل والدعاء والترجيع -وإن خالف بعضه بعضًا فى الصوت واللون وفى بعض النوح والهديل والدعاء والترجيع- حتى قال: والقمرى حمام، والفاختة حمام، والورشان حمام، كذلك اليمام واليعقوب (أى ذكر الحجل) وضروب أخرى كلها حمام.

وما من شك فى أن الجاحظ صادق فى تعبيره اللغوى أيما صدق؛ لأن

أفـــرد الجاحظ مساحات كـــبيرة من كـــتابه للحـــديث عن الحمـــام.. حيث تحـــدث عن صفاته ومميزاته وعـــاداته، وهى ما يستفيد منها علمـــاء اليـــوم .. لصحتها ودقة وصفها

الحمام فى اللغة يطلق على عديد من الطيور، وكذلك الحال فى كثير من اللغات لما يقابل الحمام.

ويضيف فى وصفه للحمام: إنه طائر ألوف مألوف ومحبب، وموصوف بالنظافة حتى أن ذرقه لا يعاب ولا نتن له كسُلاح الدجاج والديكة، وقد يعالَج بذرقه صاحب الحصاة، والفلاحون يجدون فيه أكثر المنافع، والخباز يلقى الشىء منه فى الخمير لينتفخ العجين ويعظم الرغيف ثم لا يستبين ذلك فيه، ولذرقه غلات يعرف ذلك أصحاب الحجر، وهو يصلح فى بعض وجوه الدبغ.

أسس تقسيم الحيات وأنواعها عند الجاحظ

يختص الجاحظ فى كتابه الحيات بالاهتمام فيصف أنواعها وكيف تحصل على طعامها وأنها تلد وتبيض، وأنها ليست بذات قوائم، وإنما تنساب (تزحف) على بطنها، وفى تدافع أجزائها وتعاونها فى حركتها دليل على إفراط قوة بدنها.

وربما كانت الحيات عظامًا جدًا ولا سموم لها، ولا تنقر بالعض، وفى البادية حية يقال لها الحفاث، تأكل الفأر ولها وعيد منكر، ونفخ وإظهار للصولة، وما أكثر ما يكون بين أعناق الحيات تخصير، ولصدورها أغباب، وذلك فى الأفاعى أعم (وهذه مشاهدة جيدة).

أعاجيب الهضم عند النعام

يطوّف بنا الجاحظ على عالم النعام شارحًا عملية الهضم عند هذا المخلوق العجيب ويقارنها بالحيوانات الأخرى ويذكر أن من أعاجيبه أنه يغتذى الصخر ويبتلع الحجارة، ويعمد إلى المرو من الحجارة التى توصف بالملاسة، ويبتلع الحصى، والحصى أصلب من الصخر، ثم يميه ويذيبه من

قانصته حتى يجعله كالماء الجارى، ويقصد إليه وهو واثق باستمرائه وأنه له غذاء وقوام. ويعلق الجاحظ على ذلك بقوله: «إن فى ذلك أعجوبتين، إحداهما التغذى بما لا يُتغذى به، والأخرى استمراؤه وهضمه للشىء الذى لو أُلقى فى شىء ثم طُبخ، أبدًا ما انحل ولا لان، والحجارة هى المثل المضروب. ومن زعم أن جوف الظليم إنما يذيب الحجارة بقيظ الحرارة فقد أخطأ، ولكن لابد من مقدار للحرارة نحو غرائز أخر وخاصيات أخر، على أن القول فى الخاصيات والمقابلات والغرائز حق.. ألا ترى أن جوف الكلب والأسد يذيبان العظام ولا يذيبان نوى الثمر، ونوى الثمر أرخى وألين وأضعف من العظام المصمتة، وما أكثر ما تهضم العظم، وقد يهضم العظم جوف الأسد؟! مما يدل على أن جوف النعامة ليس يذيب الصخر الأملس بالحرارة، ولكنه لابد على كل حال

من مقدار من الحرارة مع خاصيات أخر، يقول عنها إنها ليست بذات أسماء ولا تعرف إلا بالوهم فى الجملة. والجاحظ مخطئ فى هذا؛ لأن الظليم إنما يبتلع الحصى ليساعده على تفتيت الحبوب، وأما الأسد والكلب فيليِّن جوفهما العظام بفضل وجود حمض فى المعدة، وهو ما أشار إليه بأنه خاصية ليست ذات اسم، ولا تعرف إلا بالوهم فى الجملة.

وصف الفيل للجاحظ

نظرًا لشدة إعجاب الجاحظ بالفيل فقد وصفه فى كتابه بأنه أضخم حيوان، وهو مع ضخمه أملح وأظرف وأخطر، وهو يفوق فى ذلك كل خفيف الجسم، رشيق الطبيعة.

والفيل أقوى من جميع الحيوان فى حمل الأثقال ومن قوة عظمه أنه يمر خلف القاعد –مع عظم بدنه– فلا يشعر بوطئه ولا يحس بسيره؛ لاحتمال بعض بدنه لبعض. وليس فى حوامل إناث الحيوان أطول مدة حمل من الفيل والكركدن (الخرتيت أو وحيد القرن).

أمثلة جميلة توضح صفات الحيوانات العجيبة

يقال: أجرأ من الأسد، وأصبر على الهون من كلب، وأظلم من حية، وأغدر من الذئب، وأشد عداوة من عقرب، وأهدى من حمامة، وأجمع من نملة، وأبر من هرة، وأبصر من عُقاب، وأسمع من فرس، وأصح من الظليم.

بلاغة الجاحظ فى وصف الحيوان

مما يدل على بلاغة الجاحظ دعاؤه وثناؤه على الخالق بما أودعه فى الكائنات من صفات، فيقول: «سبحان الذى أودع صدور صنوف سائر الحيوان الكثير من ضروب المعارف، وما فطرها عليه من غريب الهدايات، وسخر حناجرها له من ضروب النغم الموزونة والأصوات الملحنة والمخارج الشجية والأغانى المطربة، فقد يقال إن جميع أصواتها معدلة وموزونة موقعة، ثم الذى سهّل لها من الرفق العجيب فى الصفة مما ذلله الله تعالى لمناقيرها وأكفها، وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ما هيأ لها من الآلة، وكيف أعطى كثيرًا منها من الحس اللطيف والصنعة البديعة، من غير تأديب وتثقيف، ومن غير تقويم وتلقين، وعن غير تدريج وتمرين، فبلغت بعفوها وبمقدار قوى فطرتها من البديهة والارتجال، ومن الابتداء والاقتضاب، ما لا يقدر عليه حذّاق رجال الرأى وفلاسفة علماء البشر بيد أو آلة، بل لا يبلغ ذلك من الناس أكملهم خصالا وأتمهم خلالا، لا من جهة الاقتضاب والارتجال، ولا من جهة التعسف والاقتدار، ولا من جهة التقدم فيه والتأنى فيه والتأتى له، والترتيب لمقدماته وتمكين الأسباب المعينة عليه، فصار جملة الإنسان ثاقب الحس، جامع القوى،

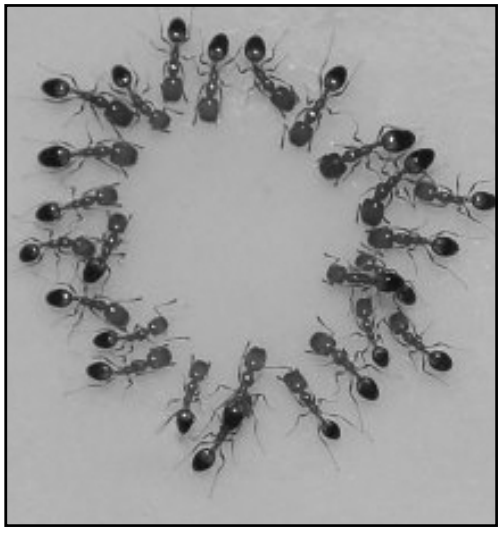

المتصرف فى الوجوه، المقدم فى الأمور، يعجز عن عمل كثير منها، وهو ينظر إلى ضروب ما يجىء منها.

النمل.. صفات وغرائب وعجائب

جاء فى وصفه للنملة وهى تجمع غذاءها: حتى ربما كانت فى ذلك أحزم من كثير من الناس، ولها مع لطافة شخصها وخفة وزنها فى الشم والاسترواح ما ليس لشىء، وربما أكل الإنسان الجراد فتسقط من يده الواحدة أو صدر الواحدة، وليس يرى بقربه نملة، ولا له بالنمل عهد فى ذلك المنزل، فلا يلبث أن تقبل نملة قاصدة إلى تلك الجرادة، فترومها وتحاول قلبها ونقلها وجرّها، فإذا أعجزتها بعد أن بلغت عذرًا مضت إلى حجرها راجعة، فلا يلبث ذلك الإنسان أن يراها قد أقبلت، وخلفها فريق من بنى جنسها كالخيط الأسود الممدود حتى يتعاون عليها فيحملنها، فأول ذلك صدق الشم لما لا يشمه الإنسان الجائع، ثم بعد ذلك الهمة والجراءة على نقل شىء فى وزن جسمها مائة مرة وأكثر من مائة مرة، وليس شىء من الحيوان يقوى على حمل ما يكون ضعفه مرارًا غيرها، وعلى أنها لا ترضى بأضعاف الأضعاف إلا بعد انقطاع الأنفاس، ولقد عرفنا أن النملة هى التى أخبرت صويحباتها من النمل، وأنها كانت على مقدمتهن؛ لأنا لم نر نملة قط حاولت نقل جرادة فعجزت عنها؛ وإن كنا لا نفرق فى العين بينها وبين أخواتها فإنه ليس يقع فى العقل غير الذى قلنا، وعلى أننا لم نر نملة قط حملت شيئًا أو مضت إلى جحرها فارغة فتلقاها نملة إلا واقفتها ساعة وخبّرتها بشىء، فدل ذلك على أنها فى رجوعها عن الجرادة إنما كانت لأشباهها كالرائد لا يكذب أهله وكالرجل الذى لا يكذب على أصحابه.

الحمام للجاحظ

فإذا ائتلف زوج الحمام، تقدما فى إعداد العش ونقل القصب وتشقيق الخوص وأشباه ذلك من العيدان الرقاق، حتى يعملا الخوص وأشباه ذلك وينسجاه نسجًا متداخلاً، وفى الموضع الذى اتخذاه واصطنعاه بقدر جثمان الحمامة، ثم أشخصا لتلك الأفحوصة حروفًا غير مرتفعة، لتحفظ البيض وتمنعه من التدحرج، ليكون رقدًا لصاحب الحضن وسندًا للبيض، ويرفيانها ويطيبانها وينفيان عنها طباعها الأول، ويحدثان لها طبيعة أخرى مشتقة من طبائعهما، ومستخرجة من رائحة أبدانهما، وقواهما الفاضلة من أرحامهما، مع الحضانة والإثارة، لكيلا تنكسر البيضة بيبس الموضع، ولئلا ينكر طبائعها طباع المكان، وليكون على مقدار من البرد والسخونة والرخاوة والصلابة. وإذا

تبدو بلاغة الجاحظ فى وصف الحيوان.. من خلال دعائه وثنائه على الخالق بما أودعه فى الكائنات من صفات

وضعت الأنثى البيض فى ذلك المكان، فلا يزالان يتعاقبان الحضن ويتبادلانه، حتى إذا بلغ البيض مداه، وانتهت أيامه، انصدع البيض عن الفرخ، فخرج عارى الجلد صغير الجناح قليل الحيلة، منسد الحلقوم، فيعينانه على خلاصه من بيضه وترويحه من ضيق هوانه، وهما يعلمان أن الفرخين لا تتسع حلوقهما للغذاء، فلا يكون لهما عند ذلك هم إلا أن ينفخا فى حلوقهما الريح، لتتسع الحوصلة بعد التحامها، وتنفتق بعد ارتفاقها، ويعلمان أنه إن امتنعت الحوصلة شيئًا لا يحتمله فى أول غذائه، فيزق أولاً باللعاب المختلط باللبن، وهم يسمون ذلك اللعاب اللِّبأ، ثم يعلمان أن طبع حواصلهما يضعف عن استمرار الغذاء وهضم الطعام، وأن الحوصلة تحتاج إلى دبغ وتقوية، وتحتاج إلى أن يكون لها بعض المتانة والصلابة، فيأكلان من الملح والحمض والأغذية المقوية الأخرى ثم يزقان الفرخ، حتى إذا علما أنه قد اندبغ واشتد، زقاه بالحب الذى هو أقوى وأطرى، فلا يزالان يزقانه بالحب والماء على مقدار قوته ومبلغ طاقته. وهو يطلب ذلك منهما، حتى إذا علما أنه قد أطاق التقاط الحب، منعاه بعض المنع ليحتاج إلى اللقط فيتعوده. حتى إذا علما أن ذاته قد تمت، وأن أسبابه قد اجتمعت، وأنهما إن فطماه فطمًا مقطوعًا مجذوذًا قوى على اللقط، وبلغ لنفسه منتهى حاجته، ضرباه إذا سألهما الكفاية ونهياه متى رجع إليهما للعادة. ثم تُنزع تلك الرحمة العجيبة منهما له، وينسيان ذلك العطف المتمكن عليه، ويذهلان عن تلك الأثرة والكد المضنى من الغدو يوميًا عليه، والرواح إليه، ثم يبتديان العمل ابتداء ثانيًا على هذا النظام، وعلى هذه المقامات. فسبحان من عرّفهما وألهمهما وهنأهما وجعلهما دلالة لمن استدل ومخبرًا صادقًا لمن استخبر، ذلكم الله رب العالمين.